البـاب الثـامن

الواردات لاتحتاج إلى استعداد

وإذا أراد الله أن يصطفى عبدًا لحمل معرفته وينقله من تعب خدمته ، قوّى عليه الواردات الإلهية فجذبته إلى الحضرة الربانية ، وهى مواهب لا مكاسب تنال بأعمال لا بحيل ، وقلّ أن تأتى إلا بغتة كما أشار إلى ذلك فى أول الباب الثامن فقال رضى الله عنه :

[قلَّ ما تأتى الواردات الإلهية إلا بغتة صيانة لها لئلا يدعيها العباد بوجود الاستعداد] .

قال القشيرى : الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون للعبد فيه تحمل ، والواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو ماتضمن معناه . والواردات تكون وارد سرور ، ووارد حزن ، ووارد قبض ، ووارد بسط ، إلى غير ذلك من المعانى ، وهو قريب من الحال .

وسئل الشيخ عبد القادر الجيلانى نفعنا الله بذكره عن صفات الواردات الإلهية والطوارق الشيطانية ، فقال : الوارد الإلهى لا يأتى باستعداد ولا يذهب بسبب ولا يأتى على نمط واحد ولا فى وقت واحد ، والطوارق الشيطانية بخلاف ذلك غالبًا اهـ .

قلت : والمراد به هنا نوع خاص ، وهو نفحات إلهية يهب نسيمها على القلوب والأرواح والأسرار فتغيب القلوب فى حضرة علام الغيوب ، وتغيب الأرواح فى جبروت العزيز الجبار ، فتطيش فرحًا وسرورًا ، وترقص شوقًا وحبورًا :

إذا اهْتَزَّتِ الأَرْوَاحُ شَوْقًا إِلَى اللِّقَا تَرَقَّصَتِ الأَشْبَاحُ يَاجَاهِلَ الْمَعْنى

وقل ما تكون هذه الواردات الإلهية إلا بغتة ، لأنها لا تنال باكتساب ، وإنما

هى فتح من الكريم الوهاب ، ولو كانت تنال بجد واجتهاد لادّعاها العبّاد والزهّاد ، بوجوب التأهب والاستعداد ، فتصير حينئذ المكاسب ، والأحوال والواردات إنما هى مواهب :

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ)[١] .

ونسخة الشيخ زروق العباد بالتخفيف جمع عبد وهى أعم .

قال : والحكمة فى إتيانها بغتة ثلاثة أمور : أحدها ليعرف منة الله فيها . الثانى ليُقْدَرَ قَدرُها ويعظُم الفرح بها . الثالث الغيرة عليها وتعزيزها ، لأن ما كان من العزيز لا يكون إلا عزيزًا اهـ .

الواردات والخواطر

ثم إن هذه الواردات الإلهية والمواهب الاختصاصية أسرار من الحكيم الغفار لا يمنحها إلا لأهل الصيانة والأمانة ، لا لأهل الإفشاء والخيانة ، كما أشار إليه بقوله :

[من رأيته مجيبًا عن كل ما يسأل ، ومعبرًا عن كل ما شهد ، وذاكرًا لكل ما علم فاستدل بذلك على وجود جهله] .

قلت : أما وجه جهله فى كونه مجيبًا عن كل ما سئل فلما يقتضيه حاله من الإحاطة بالعلوم ، وقد قال تعالى :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)[٢] .

فأى جهل أعظم ممن يعارض كلام الله ولما فيه أيضًا من التكلف ، وقد قال تعالى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)[٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أَنَا وَأَتْقِيَاءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » .

ولا يخلو صاحب التكلف من التصنع والتزين ، وهو من شأن الجهل بالله ، إذ لو كان عالمًا به لاكتفى بعلمه وعرف قدره ، ففى بعض الأخبار .

---

(١) البقرة : ١٠٥ . (٢) الإسراء : ٨٥ . (٣) ص : ٨٦ .

« عاَشَ مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ » .

وسئل بعضهم عن العلم النافع ، فقال : أن تعرف قدرك ، ولا تتعدى طورك .

وقال بعض المحققين : إذا قال العالم لا أدرى أصيبت مقاتله . وقال فى الإحياء : كان السلف الصالح يسأل أحدهم عن المسألة الواحدة فيدفع السائل إلى غيره ، ثم يدفعه الثانى إلى آخر ، ثم كذلك حتى يرجع إلى الأول . وكان بعضهم إذا سئل عن مسألة يقول للسائل اذهب بهاإلى القاضى فقلدها فى عنقه .

وقد سئل مالك رحمة الله عن اثنتين وثلاثين مسألة ، فأجاب عن ثلاث وقال فى الباقى لا أدرى فقال له السائل : وما نقول للناس ؟ فقال قل لهم قال مالك لا أدرى . وأيضًا إجابة كل سائل جهل وضرر ، إذ قد يكون السائل متعنتًا لا يستحق جوابًا ، وقد تكون المسألة التى سأل عنها لا تليق به لأنه لا يفهمها ولا يطيق معرفتها ، فتوقعه فى الحيرة أو الإنكار وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« لَاتُؤتُوا الْحكْمَةَ غَيْرَ أَهْلِها فَتظَلِمُوهَا وَلَا تَمْنَعُوهَا أَهْلَهَا فَتظْلموهُمْ » ، وفى ذلك يقول الشاعر :

سَأَكْتُمُ عِلمِى عَنْ ذَوِى الْجهْلِ طَاقَتِى ... وَلَا أَنْثُرُ الدُّرَّ النَّفيسَ عَلَى الْبُهُمْ

فَإِنْ قَدَّرَ الله الكَرِيمُ بِلُطْفِهِ ... وَلَاقَيْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحِكَمْ

بَذَلْتُ عُلُومِى وَاسْتَنفدْتُ عُلُومَهُمْ ... وَإِلَّا فَمَخزُونٌ لَدَىَّ وَمُكْتَتَمْ

فَمَنْ مَنَحَ الجهّالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنَعَ الْمُستَوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

وقال على كرم الله وجهه : حدث الناس بقدر ما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله . وقد قيل للجنيد رضى الله عنه : يسألك الرجلان فتجيب هذا بخلاف ما تجيب به هذا ؟ فقال : الجواب على قدر السائل : قال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْنَا أَنْ نُخَاطِبَ الناس عَلَى قَدْرِ عُقُولهم » اهـ .

وقال رجل لبعض العلماء وقد سأله فلم يجبه : أما علمت أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَتَمَ عِلْماً نَافِعًا أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بلجامٍ مِنَ النارِ » .

فقال له العالم : اترك اللجام واذهب ، فإن جاء من يستحقه وكتمته فليلجمنى به اهـ . وأما وجه جهله فى كونه معبرًا عن كل ما شهد من الكرامات وما وصل إليه من المقامات وما ذاقه من الأنوار والأسرار ، فلأن هذه الأمور أذواق باطنية وأسرار ربانية لا يفهمها إلا أربابها ، فذكرها لمن لا يفهمها ولا يذوقها جهل بقدرها . وأيضًا هى أمانات وسر من أسرار الملك ، وسر الملك لا يحل إفشاؤه ، فمن أفشاه كان خائنًا ، واستحق الطرد والعقوبة ، ولا يصلح أن يكون أمينًا بعد ذلك . فكتم الأسرار من شأن الأخيار ، وهتك الأسرار من شأن الأشرار ، وقد قالوا : قلوب الأحرار قبور الأسرار . وقال الشاعر :

لَايَكتمُ السِّرَّ إلا كُلُّ ذِى ثِقَةٍ فالسِّرُّ عِنْدَ خِيَارِ الناس مَكْتُومُ

وفى إفشائها قلة عملها ونفعها فى الباطن ، ففائدة هذه الأحوال والواردات الإلهية هى محو الحس وإظهار المعنى أو محو الشك وتقوية اليقين ، فإذا أفشاها ضعف إعمالها وقلت نتيجتها ، والخير كله فى الكتمان . فى الحديث :

« اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجكُمْ بِكتمانِهَا » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وينخرط فى سلك الأحوال التى يجب كتمانها خرق عوائد النفوس ، فمن خرق عادة فى نفسه فلا يفشى ذلك لغيره ، فإن فى ذلك دسيسة لها ، لأنها تحب أن تذكر بالقوة والنجدة فيكون كلما قتل منها أحياه فى ساعته . وفيه أيضًا نقص الإخلاص وإدخال الرياء ، وهو سبب الهلاك والعياذ بالله .

وأما وجه جهله فى كونه ذاكرًا لكل ما علم من الحقائق والعلوم والمعارف ، فلأنه جهل قدرها واستخف شأنها ، فلو كانت عنده رفيعة عزيزة ما أفشاها لغيره ، إذ صاحب الكنز لا يبوح به وإلا سلبه من ساعته ، وانظر قول شيخ شيوخنا الجذوب رضى الله عنه :

احْفُرْ لِسِرِّكَ وَدُّكُو فِى الأَرْضِ سَبْعِينَ قَامَهْ
وَخَلِّ الْخَلَائِقَ يَشْكُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَه

وإذا كان الله تعالى يقول : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[1] .

فكيف بالعلم الذى هو لؤلؤ مكنون . قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ مِنَ الْعِلمِ كَهَيْئَةِ الْمَكْنُونِ لَا يَعْرِفُه إِلَّا الْعُلَمَاء بِالله ، فإذا أظهروه أنكره أهل العزة بالله » اهـ .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : حفظت من رسول الله ﷺ جرابين من علم : أما أحدهما فبثثته فى الناس ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع منى هذا البلعوم اهـ .

ولله در زين العابدين سيدنا على بن الحسين بن على كرم الله وجهه حيث يقول :

يَارُبَّ جَوْهَرِ عِلمٍ لَوْ أَبُوحُ بِهِ لَقِيلَ لى أَنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوثَنَا
وَلَاسْتَحَلَّ رِجَالٌ مُسْلِمُون دَمِى يَرَوْنَ أَقْبَحَ مَا يأْتُونَهُ حَسَنًا
إِنِّى لَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِى جَوَاهِرَهُ كَىْ لايَرَى الحقَّ ذُو جَهْلٍ فَيفْتتنَا

وقال الروذبارى رحمه الله : علمنا هذا إشارة ، فإذا صار عبارة خفى . وقال الإمام الغزالى : قد تضر الحقائق بأقوام كما يتضرر الجُعَل بالورد والمسك .

قلت : قد يرخص للعارف الماهر إلقاء الحقائق مع من لا يعرفها ، بعبارة رقيقة ، وإشارة لطيفة ، وغزل رقيق بحيث لا يأخذ السامع منها شيئًا . فقد كان الجنيد رضى الله عنه يلقى الحقائق على رءوس الأشهاد ، فقيل له فى ذلك ، فقال : جانب العلم أحمى من أن يأخذه غير أهله ، أو علمنا محفوظ من أن يأخذه غير أهله ، والله تعالى أعلم .

ثم إن الإجابة عن كل ما سئل والتعبير عن كل ما شهد وذكر كل ما علم بوجب إقبال الخلق عليهم وتعظيمهم وإكرامهم فى هذه الدار ، لأن من ظهرت

---

(١) النساء : ٥ .

مزيته وجبت خدمته : ومن شأن العامة تعظيم صاحب الكرامة ، فيجنى ثمرة علمه وعمله فى هذه الدار الفانية ، وتفوته درجات الصديقين فى تلك الدار الباقية ، فأمره بكتمها ، ويقنع بعلم الله ويدخل الجزاء عليها ليوم لقاء الله ، وعلى ذلك نبه بقوله : إنما جعل الدار الآخرة محلا لجزاء عباده المؤمنين ، لأن هذه الدار لا تسع ما يريد أن يعطيهم ، ولأنه أجَّلَ أقدارهم عن أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها .

قلت : لاشك أن الله تعالى وسم هذه الدار بدار الغرور ، وحكم عليها بالهلاك والثبور ، فهى دار دنية دانية ، زائلة فانية ، فلذلك سميت الدنيا إما لدنوها وإما لدناءتها ، فهى ضيقة الزمان والمكان ، ووسم الآخرة بدار القرار ، ومحل ظهور الأنوار ، وانكشاف الأسرار ، محل النظرة والحبور ، ودوام النعمة والسرور ، محل شهود الأحباب ودفع الحجاب ، نعيمها دائم ، ووجودها على الدوام قائم ، فلذلك جعلها الحق تعالى محلا لجزاء عباده المؤمنين ، ومقعد صدق للنبيين والصديقين ، ولم يرض سبحانه أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ضيقة الزمان والمكان ، ومحل الأكدار والغيار والذل والهوان ، لأنها ضيقة لا تسع ما يريد أن يعطيهم : أى لا يسع فيها ما يريد أن يكرمهم به تعالى زمانًا ولا مكانًا . لأن أدنى أهل الجنة يملك قدر الدنيا عشر مرات فكيف بأعلاهم ؟ قال تعالى :

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ)[1] .

وقال ﷺ : « يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ » .

ولأنه جل وعلا عظم أقدار عباده المؤمنين والمقربين أن يجازيهم فى دار لا بقاء لها ، فعمارتها خراب ، ووجودها سراب . ففى بعض الأخبار : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لاختار العاقل الذى يبقى على الذى لا يبقى اهـ لا سيما بالعكس . فالآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى ؛ فلا يختارها إلا من حكم الله عليه بالشقاء والعناء .

---

(١) السجدة : ١٧ .

والخزف : بالخاء والزاى والفاء المحركات : الطين المصنوع للبناء وهو الآجر .

وفى حديث آخر : « أَلَا وَإِنَّ السَّعِيدَ مَنِ اخْتَارَ بَاقِيَةً يَدُومُ نَعِيمُهَا عَلَى فَانِيَةٍ لَايَنْفَكُّ عَذَابُهَا ، وَقَدَّمَ لِمَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ مِمَّا هُوَ الآن فى يدِهِ قَبْلَ أَنْ يُخَلِّفَهُ لمنْ يَسْعدُ بِإنْفَاقِهِ وَقَدْ شَقِىَ هُوَ بِجَمْعِهِ وَاحْتِكَارِهِ » اهـ .

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« حَلُّوا أَنفسَكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وأَلبِسُوهَا قِنَاعَ المَخَافَةِ ، وَاجْعَلُوا آخِرَتَكُمْ لأَنْفُسِكم وَسَعْيَكُمْ لُمسْتَقَرِّكُمْ : وَاعْلمُوا أَنكُمْ عَنْ قَليلٍ رَاحِلُونَ ، وَإِلَى اللهِ سَائرُونَ ، وَلَا يُغْنِى عَنْكُمْ هُنَالِكَ إلَّا صَالحُ عَمَلٍ قَدَّمْتُمُوهُ ، أَوْ حُسْنُ ثَوَابٍ جُزِيتُمُوهُ ، إنَّكمُ إنَّمَا تَقْدمُونَ عَلَى مَاقَدَّمْتُمْ وَتُجَازَوْنَ عَلَى مَاأَسْلَفْتُمْ فَلَا تَخْدَعَنَّكُمْ زَخَارِفُ دُنْيَا دَنِيَّةٍ عَنْ مَرَاتِبِ جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ ، فَكَأَنْ قَدْ كُشِفَ الْقِنَاعُ وَارْتَفَعَ الارْتِيَابُ ، وَلَاقَى كُلُّ امْرئٍ مُسْتَقَرَّهُ وَعَرَفَ مَثْوَاهُ وَمُنْقَلَبَهُ » اهـ .

دليل قبول الأعمال

ثم إن الجزاء فى تلك الدارَ إنما يكون على العمل فى هذه الدار بشرط كونه مقبولا وقبوله مغيب ، لكن له علامات يعرف بها هنا أشار إليها بقوله :

[من وجد ثمرة عمله عاجلا فهو دليل على وجود القبول آجلا].

قلت : ثمرة العمل هى لذيذ الطاعة ، وحلاوة المناجاة ، وأنس القلب بالمراقبة ، وفرح الروح بالمشاهدة ، والسر بالمكالمة .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ)[1] .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

ودليل وجود هذه الثمرة النشاط فى النهوض إليها والاغتباط بها والمداومة عليها وزيادة المدد فيها ، وهى علامة حلول الهداية فى القلب . قال تعالى :

(وَيَزِيدُ اللهُ الذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)[١] وللبوصيرى فى همزيته :

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدايَةُ قَلْبًا نشِطت للعِبادَةِ الأعْضَاء

فمن رأيناه فى زيادة الأعمال ، والترقى فى الأحوال ، علمنا أنه وجد لعمله ثمرة ، فهى بشارة له على قبولها ، ومن رأيناه انقطع عن عمله أو نقص من أحواله ، خفنا عليه عدم قبول أعماله . ومن ثمرة العمل أيضًا الاستيحاش من الخلق ، والأنس بالملك الحق . ومن ثمرة العمل أيضًا الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه : زاد الشيخ زروق رضى الله عنه : الحياة الطيبة ونفوذ الكلمة وانتفاء الحزن للفرح بالمنة اهـ .

فدليل الأول قوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)[٢] .

قيل هى القناعة ، وقيل هى الرضا والتسليم . والتحقيق أنها المعرفة .

ودليل الثانى وهو نفوذ الكلمة قوله تعالى :

(وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْض)[٣] فنفوذ الكلمة هى الخلافة : وقال أيضا : (وَجَعَلْنَاهمْ أَئِمَّةً يَهْدُون بِأَمْرِنَا)[٤] .

وأما الثالث وهو انتفاء الحزن ، فدليله فى نفسه ، لأن حلاوة العمل تنسى الحزن والغم ، لأنها شبيهة بنعم الجنة ، قال تعالى فى شأن أهل الجنة : (وَقَالوا الحَمْدُ لله الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ)[٥] والله تعالى أعلم .

وسيأتى التحذير من الوقوف مع حلاوة الطاعة وأنها سموم قاتلة .

---

(١) مريم : ٧٦ . (٢) النحل : ٩٧ . (٣) النور : ٥٥ .
(٤) الأنبياء : ٧٣ . (٥) فاطر : ٣٤ .

كيف تعرف قَدْرَك

ولما ذكر ميزان مقادير الأعمال ذكر ميزان مقادير الرجال . أو تقول : لما ذكر ميزان العمل المقبول من المردود ذكر ميزان العامل المحبوب من المطرود ، فقال :

[إن أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فى ماذا يقيمك ؟] .

قلت : جعل الله تعالى بحكمته خلقه على قسمين : أشقياء وسعداء ، وجعل السعداء قسمين : أهل قرب وأهل بعد . أو تقول : أهل يمين ومقربين وهم السابقون ، فإن أردت أن تعرف نفسك هل أنت من أهل الشقاوة أو من أهل السعادة فانظر فى قلبك ، فإن كنت تصدق بوجود ربك وتوحده فى ملكه وتنقاد لمن عرفك به وهو رسوله عليه الصلاة والسلام ، فأنت ممن سبقت له الحسنى ، وإن كنت تنكر أو تشك فى ربك أو تشرك به غيره فى اعتقادك ، أو لم تذعن لمن عرفك به فأنت من أهل الشقاء ، ثم إن وجدت نفسك من أهل السعادة وأردت أن تعرف هل أنت من أهل القرب أو من أهل البعد فانظر ، فإن كنت ممن يستدل بأثره عليه فأنت من أهل البعد من أصحاب اليمين ، وإن كنت ممن يستدل به على غيره فأنت من أهل القرب من المقربين . ثم إن عرفت أنك من أهل اليمين وأردت أن تعرف قدرك عنده ، هل أنت من المكرمين أو من المهانين فانظر ، فإن كنت تمتثل أمره وتجتنب نهيه ، وتسارع فى مرضاته وتتحبب إلى أوليائه وأحبائه فأنت من المكرمين المعظمين ، وإن كنت تتهاون فى أمره وتتساهل فى نواهيه وتتكاسل عن طاعته وتهتك حرماته ، وتعادى أولياءه فأنت والله عنده من المهانين المحرومين المطرودين إلا إن تداركتك عناية من رب العالمين ، وإن تحققت أنك من أهل القرب وأنك بلغت مقام الشهود تستدل به على غيره فلا ترى سواه ، فإن كنت تقر بالواسطة وتثبت الحكمة وتعطى كل ذى حق حقه فأنت من المقربين الكاملين ، وإن كنت تنكر الحكمة وتغيب عن الواسطة ، فإن كنت مجذوبًا مغلوبًا فأنت فى هذا المحل ناقص ، وإن كنت صاحيًا فأنت ساقط إلا أن يأخذ بيدك شيخ واصل أو عارف كامل .

وهنا ميزان آخر تعرف به نفسك فى القرب والبعد ، فإن وجدت شيخًا مربيًا كشف الله لك عن أنواره وأطلعك على خصائص أسراره فأنت قطعًا من أهل القرب بالفعل أو بالإمكان لقول الشيخ رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه . وإن لم تجد شيخًا مربيًا وغرك قول من قال إنه انقطع وجوده فأنت قطعًا من أهل اليمين من عوام المسلمين ، هذا الغالب والنادر لا حكم له ، والله تعالى أعلم .

وفى الحديث عنه ﷺ :

« يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى : أَنَا الله لَا إله إِلَّا أَنَا ، خَلَقْتُ الخيرَ وَالشَّرَّ ، فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدِهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ للشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدِهِ » .

وفى حديث آخر : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ فَلْيَنظُرْ مالله عِنْدَهُ » .

وفى رواية : « مَنْ أَرادَ أن يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْد اللهِ فلْينظُرْ كيف مَنْزِلَةُ الله تَعَالَى مِنْ قَلْبِه ، فَإِنَّ الله تَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ » قالَ الله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّق بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ للْيُسْرَى)[1] الآية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ميزانًا آخر تعرف به المقربين والأغنياء الشاكرين فقال :

[متى رزقك الطاعة والغنى به عنها فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة] .

قلت : الطاعة فى الظاهر هى رسوم الشريعة ، والغنى به فى الباطن هو شواهد الحقيقة ، فإذا جمع لك بين الطاعة فى جوارحك والغنى به عنها فى باطنك فقد أسبغ عليك : أى أكمل وأطال عليك نعمه ظاهرة وباطنة ، وهذه سيما

---

(١) الليل : ٥ - ٧ .

العارفين المقربين الأغنياء بالله الفقراء مما سواه ، استغنوا بمعبودهم عن رؤية عبادتهم ، وبمعلومهم عن علمهم ، وبمصلحهم عن صلاحهم .

قال الشيخ أبو الحسن فى حزبه الكبير : « نسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك حتى لا نشهد إلا إياك » ، فهؤلاء الأغنياء بالله الغائبون فيه عما سواه ، عبادتهم بالله ولله ومن الله ، قيامًا بشكر النعمة ، وإتمامًا لوظائف الحكمة . وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

« أَحَبُّ الْعبادِ إلى اللهِ الأغْنِياء الأخْفِيَاءُ الأتْقِيَاءُ » أو كما قال عليه الصلاة والسلام . وفى حديث آخر :

« لَيْسَ الْغِنَى بِكَثْرَةِ الْعَرضِ ، إنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » اهـ .

وهو الغنى بالله وهذه النعمة الحقيقية .

فالنعم الظاهرة هى تزيين الجوارح بالشريعة ، والنعم الباطنة هى إشراق الأسرار بالحقيقة . وقيل النعم الظاهرة هى الكفاية والعافية ، والنعم الباطنة هى الهداية والمعرفة ، وقيل النعم الظاهرة راحة البدن من مخالفة أمره ،والباطنة سلامته من منازعة حكمه .

وحقيقة النعمة من حيث هى ما لا يوجب ألمًا ولا يعقب ندمًا ، وقيل النعمة العظمى الخروج من رؤية النفس ، وقيل النعمة ما وصلك بالحقائق ، وطهرك من العلائق ، وقطعك عن الخلائق ، وبالله التوفيق : هذا آخر الباب الثامن .

وحاصلها : تحقيق الآداب مع الواردات الإلهية ، لأنها مواهب اختصاصية ، فمن أراد مد أنوارها فعليه بكتمان أسرارها وليؤخر جزاء ثوابها لدار يدوم بقاؤها ، فحينئذ يتحقق إخلاصه ، ويظهر اختصاصه ، فيذوق حلاوة الطاعة والإيمان ، ويعظم قدره عند الملك الديان ، فيغيبه به عما سواه ، ويسبغ عليه منته ، ومهما أغناك به استغنيت به عن طلبه .